رواسب التفكير الحريمي عند العرب و الغرب

دة. سميرة شقرون

كلية الآداب سايس- فاس

شكل ولا يزال موضوع ووضع المرأة المسلمة محور اهتمام كبير سواء في العالم الإسلامي أو العالم غير الإسلامي .ومن يؤرخ لقضيتها يكتشف أنه تاريخ متلاحق من السجالات و الاحتجاجات و المناقشات الساخنة و المستمرة إلى حد الآن

و لكن ما يجب التأكيد عليه هو أن الجانب الكمي للاهتمام و الاشتغال الواسعين بهذه القضية ولد تراكمات دون أن يكون له أثر كيفي و نوعي مهم في تغيير العقليات، وبالتالي تغيير النظرة للمرأة أو تطوير واقعها بدرجة كبيرة (1). فالقوانين و القرارات، و إن أحدثت ثورة في بعض البلدان كتونس و المغرب(2)، فالصيرورة التاريخية قد أثبتت أن تغيير العقليات يحتاج إلى تربية توعوية طويلة النفس و ممارسة ثقافية و نفسية تعيد تشكيل الوعي و التمثلات الثقافية المتوارثة من الأساس . فعلى الرغم من موجة التغيير العاصفة في موقع المرأة الإداري و السياسي و القانوني و الاقتصادي و الاجتماعي، فإن هناك ردة للمواقف المناهضة لمشاركة المرأة وحضورها في المجال و الشأن العام؛ لأن الثقافة التقليدية السائدة مازالت تقف موقفا سلبيا إزاء المرأة وجودا و أداء و مصيرا، رغم نضالاتها لإثبات ذاتها و استحقاقاتها، فهي غالبا ما تصطدم بحركة تكريس صورة نمطية حريمية حولها من طرف ذهنية ذكورية مهيمنة. فلفظ الحريم مثلا مازال شائعا لوصف النساء رغم اختفاء

...

تلك المؤسسة من معظم البلدان العربية، و هنالك حنين إلى حريم الماضي المتجاوز الذي لم يعد.

فبناء على معطيات عصرنا الحالي الزاخر بأفكار العولمة و الإصلاحات و تحرير المرأة، يتوجب التنقيب في المفاهيم الخاطئة التي طورت حول المرأة العربية المسلمة عبر تحليل دلالات "الحريم" لفظا و فكرة.1

الحريم في الفكر العربي:

ا.لغويا

إذا ما قاربنا مفهوم الحريم انطلاقا من المعاجم كلسان العرب و الرائد، فأصوله اللغوية تمتد إلى الحرام، فنلاحظ أن الحريم هو ما يحرم فلا يمس. وأيضا الحريم أو حريم الرجل؛ هو ما يدافع عنه و يحميه. و من هنا سميت نساء الرجل" حريم". ويشير الحريم أيضا إلى الفضاء الخاص بتجمع نسوي تابع لرجل واحد،كما يطلق الحريم على القسم العائلي من البناء الإسلامي القديم ذي الإطلالة الجوانبية حيث تطل نوافذ البناء و شرفاته على الداخل لا على الخارج . و أهم مميزات الحريم أنه يؤمن الخصوصية لأهل المترل من النساء .لذلك استعمل لفظ الحريم في معنى الفضاء الداخلي "المحجب"الخاص بالنساء و الممنوع على الرجال إلا مالكه.و أضحى "الحريم" أحد مصطلحات النقد النسوي العربي، و لفظا تعود شهرهما لعالمة الاجتماع والكاتبة النسوية المغربية فاطمة المرنيسي، أوردهما ضمن مجموعة مؤلفات كتبت باللغة الفرنسية ووجهت للقارئ الغربي لتكشف له عن

الوجه الآخر لأسلوب حياة المرأة في الثقافة الإسلامية.وجه تختلف ملامحه عن الصورة التي ارتسمت في المخيل الغربي عن حياة المرأة المسلمة .

2.تاريخيا

لقد أظهرت بعض الدراسات التاريخية أن الحريم هو ما عرفته كثير من الشعوب الإغريقية و الرومانية ولكن لم يكن يعرف عند العرب.و مع مجيء الإسلام و انطلاقا من القرآن الكريم عرفت لغة التخاطب مساواة بين الرجل و المرأة، فالقرآن الكريم يتوجه إلى النساء بقدر ما يتوجه إلى الرجال مما يبين أن هناك إقرارا بندية المرأة للرجل على مستوى التخاطب، و هناك إقرار باستقلالية المرأة. و لكن أثناء تكوين الحضارة الإسلامية و اتساع الرقعة الجغرافية بسبب اتصال العرب بكثير من الشعوب الأجانب وخاصة في العصر العباسي ثم المملوكي ثم الماغولي والتركي، ظهرت أو برزت ظاهرة الجواري أو ظاهرة القنان، و كان التباهي محتدا بين الخلفاء و بين السلاطين حول شراء الأجود و الأجمل و الأكثر كفاءة على مستوى الشعر و على مستوى أداء الرقص إلى غير ذلك. وغالبا ما كان يتم ضمهن مع الحرائر. وبذلك كان الحريم يضم نوعين مختلفين من النساء، مختلفات الأجناس و الأعمار والثقافات، وفي عصر الانحطاط للحضارة الإسلامية اكتسب الحريم مضامين ثقافية أخرى يمكن وصفها بالسلبي، عبرت عن عزلة المرأة أو عزلها عن العالم الخارجي، ففي السنوات التي شهدت تأخر المسلمين و نتيجة لتفشي الجهل و الأمية، أصبح الحريم موطنا للخرافة و الدسائس و المكائد بين النساء، ما كرس نظرة دونية للمرأة عملت على استبعادها واستعبادها .

ويضاف إلى ما تقدم، تلك الصورة التي شاعت عن النساء حينها، و هي صورة تنقسم على نفسها انقساما حادا بين صورة النساء الغامضات ككائنات لا مرئية و لا مسموعة بما فيهن الحرة و الرقيق، يعشن داخل الحريم المغلق بعيدا عن مجرى الحياة العامة، وبين صورة الجواري و القنان(3). و بينما تحصر الصورة الأولى وظيفة المرأة داخل الحريم في الطاعة العمياء و الإنجاب \ الزوجة الودود الولود، فإن صورة الجواري و القنان تعني حصر وظيفتهن الاجتماعية في الأنس أو المؤانسة و الإمتاع، و هذه الصورة بما تفرضه على النساء من شروط قاسية ليكتسبن صفات غير بشرية هي الأخرى تلتقي كما ترى فاطمة المرنيسي في مكوناتها القائمة على الاروتيكية و الإثارة الغريزية والخضوع مع صورة الجيشان اليابانية(4).و كلا الموقفين لا يخفي ما ينتجه من استخفاف بكرامة النساء و ما يستنبطه من علاقات القوة اللامتكافئة.

و إذا كان باستطاعة الباحث، كما فعلت فاطمة المرنيسي، أن يجد صورا مغايرة لهذه الصور، و هي ربما أكثر إنصافا في النظر للمرأة و لطاقتها الإنسانية ووظائفها الاجتماعية في المدون من الأدبيات التراثية التي وضعت تاريخا عن النساء؛ مثل كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد الذي عني بالتدوين لدور صحابيات الرسول صلى الله عليه و سلم في انطلاقة الحضارة الإسلامية، و كعمل بن حزم في أمهات الخلفاء و كتاب بن طيفور في بلاغات النساء . فإن هذه الصور لا تعكس إلا جانبا يعاني من التعتيم الشديد في ذاكرة الوجدان الجماعي.

و يجب التأكيد على أن هناك الحريم الغير مرئي الذي يحمله الكثير من العرب داخلهم، وهو ما يسمى بحريم العقل، وهو نمط فكري بني على نظرة دونية للمرأة، ترى في

حبسها عفة و طهارة. ويكتسب هذا النمط أهمية إذا ما قرأناه في إطار المعطى الاجتماعي العربي الذي لم يتجرأ قط على إحداث قطيعة معرفية جذرية مع تلك الخلفية الطللية التي قام من داخلها مثل هذا النموذج، بدليل" العودة النستولوجية أو الحنينية إليه في حالة أي محاولة للخروج عليه عبر مختلف التحولات التاريخية التي مر بها المجتمع العربي"(5).

الحريم في التفكير الغربي

الحريم في الأصل لفظ عربي استعارته أدبيات الاستشراق منذ بدايتها، إذ عمد الكتاب الخياليون الشعراء والمرتحلين إلى توظيفه بكثافة، الأمر الذي أدى إلى التطور الدلالي و الانزياح المفهومي للفظ إلى حد نسف المعنى العربي الأصلي، على سبيل عكس أفكار خاطئة و تمثيلات مشوهة، كانت قد استقرت في قعر العقل الغربي منذ بداية وعيه بالإسلام وبالعرب إبان عصر الفتوحات الإسلامية المبكرة ، فتم إدماج "الحريم"فكرة و مفهوما في كل نشاط فكري أو إبداعي حول العرب و المسلمين حيث تستثير انطباعا سلبيا في العقل الغربي، مشكلا صورة شديدة التشويه و الضبابية للحياة الاجتماعية الإسلامية من خلال بلورة مفهوم دوني للمرأة المسلمة التي رخص حبسها و ضربها و قهرها بداخل نظام عائلي و اجتماعي، اعتبر من طرف الغربي نظاما طاغيا مفتقرا إلى الإنسانية. الأمر الذي حث وبرر"التدخل" الغربي على سبيل "إرشاد" و"إصلاح"الشرق بدءا من بناه الاجتماعية الصغرى (العائلة) .

فعليه يتوجب على أي باحث منصف أن لا يغفل ثقل الموروث الحضاري التقليدي الذي كان يحرك صياغة هذا الخطاب. فالصورة المنمطة التي اعتمدها الذهن الغربي طوال القرون

الماضية، والتي تم استفراغها في كتاباتهم مشحونة بالدلالات و بالشعور الملحاح بالاستعلاء على شرق يدعونه دونيا و يتهمونه بكل السلبيات، مؤشر قوي على وجود إشكال حقيقي مع مكونات الإسلام الثقافية و الحضارية و الدينية. فهذه الصورة، كما بين الكثير من المهتمين، اتخذت مدخلا لانتقاد نسق قيم الثقافة الإسلامية، و في ظل ذلك يمكن أن نفهم أوجه الترابط الذي أقامه الغرب بين تصور عام تقليصي لوضع المرأة المسلمة باعتبارها مضطهدة و خاضعة و مسلوبة الإرادة، والتصور العام الذي كونه عن الدين الإسلامي باعتباره الإطار العام لهذه الصورة .و تداول الغرب جملة من القضايا للإحالة على هذا الوضع انطلاقا من تركيزه و صنعه لواقع رمزي عبر عملية انتقائية يتم من خلالها التركيز على المعلومات التي تكرس صورة معينة يراد ترسيخها في الذهن الغربي. و ببقاء هذه الصورة، يصبح عمر أطروحات التخلف الثقافي و الاجتماعي طويلا جدا، حتى و إن تعلق الأمر بمغالطات معرفية أو صور مركبة، فبلا شك أن المراد هو ديمومة الأفكار المسبقة و تواصلها .

ورغم الانتقادات الكثيرة الموجهة لأطروحة إدوارد سعيد ناقد الاستشراق المعروف، فإنه لم يغادر الصواب عندما أفصح بأنه لم يجد في تاريخ الفكر و الفلسفة الغربيين منذ العصر الوسيط حتى شبنغلر (6) مفكرا قدم على التعامل مع الإسلام خارج الأطر المشوهة الموروثة المرتكزة على عواطف التحامل و الضغينة، ما يبرر ما اتسمت به كتابات معظم المستشرقين من الانتقائية في عرض معلوماتهم وأفكارهم وتصوراتهم وخضوع مؤلفاتهم لضغط الموروث التقليدي لدى القارئ الغربي المهووس سلفا بحالة العداء و التعالي لكل ما هو عربي ومسلم والرغبة في تكريس البون الشاسع بين كلا

الحضارتين، بما يبرر بالتالي غزوه و استعماره.و للتمثيلات أغراض فعالة، يقول سعيد: "و التمثيلات تشكيلات، أو كما قال رولان بارت عن جميع عمليات اللغة، التمثيلات إفساد لتشكيلات أو تشويهات؛ فالشرق كتمثيل في أوروبا، يشكل أو يفسد تشكيله(يشوه)- بسبب من حساسيته تصبح أكثر فأكثر تحديدا بإزاء منطقة جغرافية اسمها "الشرق"(7)، كما يظهر الإسلام بخلاف أي ديانة أو حضارة أخرى "ضد – إنساني، عاجز عن التطور و معرفة الذات و الموضوعية، إضافة إلى كونه عقيما غير خلاق، لا علميا و سلطويا "(8).

لقد كان الحافز إلى أدب الارتحال الغربي هو كتاب "الليالي العربية "، وهي الترجمة الأوربية لكتاب "ألف ليلة و ليلة " الذي ترجمه ريتشارد بيرتون Richard Burton، في أواسط القرن التاسع عشر من منظور يخدم فيه الإمبراطورية و رحالها من خلال تعريفهم بالآخر\ العربي المسلم، مجتمعه و طبائعه . يبين برفن جميل شك في كتابه "الاستشراق جنسيا" (5)أن كتابات مزورة و مستلة من مناخات "ألف ليلة وليلة" صارت تدفع إلى المطابع بأسماء مزورة، لتعمل على تأجيج المخيال" المجنس"عند الغرب باتجاه الشرق. وعليه، فقد دأب أدب الارتحال على استعارة جميع أدوات التعبير في رؤيته للشرق من أدب "الليالي العربية "الذي حظي بقيمة استثنائية عند المرتحل الغربي /المستشرق إلى الشرق، و هذا ما جعله عاجزا عن تجاوز تنميطاته الثقافية الاستشراقية عن الشرق.فالشرق الحقيقي هو إنشاء، كما أوضح إدوارد سعيد، اخترعه الخيال الأوربي، هذا الإنشاء شكل عقبة حالت دون وصول العلماء المختصين إلى معرفة حقيقية بتاريخ الشرق، ولذلك لم يتم تجاوز الشرق الخيالي إلى الشرق الحقيقي، على رغم ادعاءات بعض

...

المستشرقين بأنهم يتسلحون بالتجربة و روح البحث العلمي في قراءتهم للشرق لاتخاذهم موقف علوي من الحضارات الأخرى، وهو ما يمكن أنْ نرصده في أهم كتب الارتحال في العصر الفيكتوري التي سعت كما يقول إدوارد سعيد إلى تكوين معرفة خابرة في العالم العربي الإسلامي كما بين محمد الدعمي في كتابه "الاستشراق : الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي و رنا قباني في كتابها "أساطير أوربا عن الشرق".

ولا شك أننا لو انطلقنا من تصور ضيق الأفق، فقد يتبادر إلى الذهن التساؤل حول مشروعية العودة إلى نصوص تنتمي إلى حقبة ماضية، وعن الفائدة التي يمكن أن نجنيها من وراء مساءلة هذه النصوص و تحليلها، يكفي التأكيد على أن مبرر هذه العودة يستمد أساسه من الجدل الذي يفرض استمرارية، ويبقى قائما باعتبارنا نحيا حاضرا مازال يعاني مما حاولت تصورات و تمثيلات العصور الغابرة إلصاقه بنا كدين و حضارة .وببقاء هذه الاكليشهات يصبح عمر طروحات التخلف الثقافي و الاجتماعي طويلا جدا، و إن تعلق الأمر بمغالطات معرفية و صور مركبة .و قد احتازت هذه الأساطير و الحكايات المنسوجة حول المسلمين عصورا غير ممسوسة من القرون الوسطى إلى عصر الأنوار مرورا بعصر النهضة.وتكفي نظرة سريعة إلى أدب الرحلات إلى الشرق الأوسط و المغرب الأقصى لنبين وحدة التصور الاستشراقي في مسلماته واستنتاجاته حول عالم النساء، التي أصبحت تنتقل من جيل إلى آخر وتؤلف موروثا يتلقى كوصية فكرية. و هذا التعميم لا يصدق فقط على المستشرقين المنتمين إلى فضاءات جغرافية وثقافية متنوعة، بل كذلك على المستشرقات الأوربيات

و المقصود في هذا السياق هو تتبع أصول و تبرعمات الصورة الأكثر شيوعا في الثقافة الغربية للإسلام و لإماطة اللثام عما ترسب في قعر العقل الغربي من مشاعر الحساسية و التحامل و الرغبة بتشويه الإسلام دينا و تراثا .

وفيما يتعلق ب"الحريم "الذي غدا مفهوما مبتكرا يتوسله العديد من الشعراء والكتاب الخياليين للتعبير عن فنطازياقم و إسقاطاقم الشخصية، فقد شكل عالمه فضاءا عصيا على الاختراق بالنسبة للمستشرق الغربي، الذي عبر في أحيان كثيرة عن حيرته و جهله أمام الأفق الحصين "الممنوع من المعرفة ". فجهله بهذا الوسط قد استثار خياله، و استمر في وعيه الباطن، بشكل شهواني في أحيان كثيرة، كما تدل على ذلك الكثير من كتاباقم الأدبية و إبداعاقم الفنية .

ولكي ندرك ظاهرة تقدم الخيالي على الواقعي في الذهنية الغربية، علينا أن نلاحظ هيمنة صورة المرأة المستقاة من كتاب" ألف ليلة و ليلة" الذي "أصبح منجما لا ينضب من التصويرات الخاطئة و الأفكار المتوارثة" التي احتضنها جمهور القراء في تلك الفترة حول المرأة المسلمة و أحوالها، والتي دأب الغربيون على الرجوع إليها للاغتراف من منبع الخيالات الفنطازية . فكما كتب الدعمي اكتسب لفظ "الحريم " قيمة مفهومية "فوق نصية "و استقطب "دلالات إضافية، إذ توحي بانطباع منمط غير واقعي يتجسد في عالم شرقي لازمني يطفو هائما بلا هدف فوق محيط متلاطم بالحسية و يعج بالطغاة و بالخيالات"(9). وكما لاحظ ادوارد سعيد يوحي الشرق "بحرية الجنس الشبق" وب"تجربة

جنسية" لا يمكن الفوز بها في أوربا.ولا يستثني سعيد مبررا أي كاتب أو مرتحل غربي رجلا أو امرأة من هذا الميل إلى "الجنسية الشرقية".

فكما تشير بلي ملمان (10) Billie Melman أن الرغبة في اختراق جناح النساء بمسكن المسلم لتطلع أكثر على أحوال النساء الشرقيات فاقت لهفة المسافر. و مما يدل على أن "الملاحظة" أو" المشاهدة " نشاطات مبرمجة، فالنساء كن منحازات و مجحفات لأن المرتحلين، بغض النظر عن جنسهم أو طبقتهم أو مستواهم الثقافي، لا يشتغلون في فراغ معلوماتي .فالنساء كالرجال عاشوا التجربة خياليا قبل زيارتهم للشرق جغرافيا .فقد جلبوا معهم صورا منقولة عبر تقليد أدبي طويل، مع العلم أن الرحالة من النساء إلى الشرق اعتبرن شهود عيان مما أتيح لهن من فرص ولوج عالم الحريم و استقراء دواخله .

تفوقت مجموعة من الرحالات الأجنبيات على الرجال من المستشرقين في ولوج عالم الحريم في مصر وإسطنبول وبلدان العالم الإسلامي، بمساعدة من الخدم وبفضول من نساء "الحريم "أنفسهن لمعرفة هؤلاء النساء الغربيات السافرات اللواتي يتجولن في عالم الشرق بكامل حريتهن. هناك على سبيل المثال فلورنس يانتنجل التي جاءت في رحلتها إلى مصر لزيارة الآثار، وتمكنت من الدخول إلى حريم سعيد باشا في الإسكندرية وراحت تصف الملل الذي يسود في هذا القصر الفخم و غياب السياسة عن عالم الحريم . إلى جانبها هناك هاريت مارتنو التي ذهبت إلى مصر و فلسطين و سورية و لبنان لدراسة مجتمعاتها و أديانها، قديما و حديثا، متسلحة بروح البحث العلمي لكنها تظل أسيرة

الذهنية الاستشراقية الأبوية التي تطل من برجها العالي على حياة الشرق الحميمية الخاصة، وهذا ما يجعلها أسيرة أطر التفكير الإستشراقي المتعالي و المزدري للشرق .

تزور مارتنو أحد أجنحة الحريم في قصر من قصور القاهرة و تبدي استياءها من اكتشاف "رعب حياة النساء تحت ما أطلق عليه "مؤسسة تعدد الزوجات" وكما لاحظ الدعمي فبالنسبة إلى مارتنو و غيرها من الرحالة لا يختزل مفهوم الحريم فقط بؤس النساء المسلمات، بل يعبر كذلك عن بؤس الوجود الاجتماعي المصري و الإسلامي عامة(11). فإن تحرير النساء الشرقيات لا يمكن أن يتحقق بدون فرض السلطة و الهيمنة على كامل المجتمع "المتخلف"الذي يحيل المرأة الشرقية الواهنة المحجوبة، و النظام الاجتماعي الهش التي يغلفها و الذي يستدعي حسب منطقهم، تدخلا غربيا "رجوليا " من أجل الإصلاح و التوجيه . لهذا تتلخص فرضية مارتينو الرئيسية في أن "عادة تعدد الزوجات الجحيمية، كما تفضل أن تسميها، إنما تكمن خلف جميع شرور التخلف الاجتماعي والسياسي في الأماكن التي يسمح فيها بتعدد الزوجات، فمادامت هذه العادة متواصلة على نحو فوضوي في مصر، فإن مصر تبقى قابعة في الدرك الأسفل من الجحيم(12).

فمصر كباقي المجتمعات التي فشا فيها تعدد الزوجات لن تكتب لها النهضة ولا التقدم. لهذا السبب، فإنه ليس ببعيد المنال بالنسبة لأغلب هؤلاء الكتاب، التفكير بالإمبراطوريات الأوروبية التي كانت تعيش عصرها الذهبي وقتذاك، ببدائل أقوى و أقدر على فرض السيطرة على هذه البقاع من الوطن العربي، خصوصا وأنهم كانوا يعتقدون بأن هذه الإمبراطوريات كانت محملة بعبء "رسالة الرجل الأبيض "من أجل القضاء على

...

الممارسات الاجتماعية البالية و السلبية كالعبودية و اضطهاد النساء، كما روجت الإدارات الإمبراطورية لهذه الرسالة المزعومة.

فالتواشج الذي يفترضه المستشرقون بين تردي الحياة العربية الإسلامية و التشبث بهذه الصورة للمرأة المسلمة المقموعة الحبيسة، يدعم ما نذهب إليه حول الكيفية التي تم من خلالها توظيف "الحريم"فكرة مجردة، يخفي وراءه إصرارا على ضرب المجتمعات العربية في صميمها لكي تظل صورة البلدان المتخلفة عن ركب الحضارة، فإنكار تطور حال المرأة العربية يمثل حتمية من حتميات تواصل تقسيم العالم إلى متقدم و متخلف .و بلا شك فإن المراد هو ديمومة الأفكار .

قد يميل الكثيرون إلى التفكير أن الصورة النمطية التي وضعها الغرب للمرأة المسلمة قد وجدت أساسا لها في الوضع العام التي تعيشه المرأة في العالم الإسلامي، لكن هنا لابد من إقامة تمييز بين الإسلام و القراءات التي تقدم له .إن هناك فرقا بين النص الديني و القراءات التأويلية التي قدمها المفسرون، والتي كانت محكومة بالمحيط السوسيوثقافي، لذلك يجب وضع الممارسات الثقافية و العادات و التقاليد موضع تساؤل باعتبارها سببا مباشرا في تدني وضع المرأة لإخفاقها في إزالة المفاهيم المتوارثة، وعجزها عن إيضاح وتقديم الموقف الإسلامي الحقيقي الأصيل حيال المرأة وحقوقها،كما أنها تتجاوز الفلسفة الكامنة خلفه.

نعم، لقد أقر القرآن بتعدد الزوجات، إلا أن هذا التعدد لم يؤسسه هو، بل كان موجودا من قبل (و هو موجود كذلك في التوراة و في الإنجيل) و قد فرض عليه، على العكس، حدودا مثل العدل التام بين مختلف الزوجات في الإنفاق و المحبة و المعاشرة

الجنسية. فقد صورت الشريعة الإسلامية و كأنها حافلة بضروب التساهل في هذا الموضوع، في حين أنها قيدت تعدد الزوجات بقيود معينة و كان هذا التعدد حرا قبل الإسلام، مطلقا من كل قيد .كما أن الإسلام منح حق الذمة المالية قبل كل الحضارات الأخرى التي كانت تعتبر المرأة ملكا لزوجها، يتصرف هو في مالها بحري، وليس لها الحق في مراجعته، وكان هذا هو حال المرأة الغربية في أوربا منذ القرون الوسطى وحتى نهاية القرن التاسع عشر، بينما المرأة المسلمة تمتعت بهذا الحق منذ ظهور الإسلام الذي كفل لها حق البيع و الشراء و إبرام العقود، دون أي تدخل من أي رجل، سواء كان أبا أو أخا أو زوجا أو ابنا.

وبالإضافة إلى سعي الآخر للإبقاء على الصورة المظلمة للمرأة العربية والمسلمة، تجدر الإشارة هنا إلى الدور المساعد التي لعبته بعض النخب المبدعة المهاجرة و المنتشرة في مناطق تأثير في العالم الغربي، الذين سلكوا طريق الأفكار المسبقة تحت ضغوطات و متطلبات السوق لإرضاء التوقعات، فانساقوا يسوقون صورا نمطية ووظفوا أقلامهم في وصف معاناة المرأة المسلمة، تتغذى من انتظارات الآخر و تصوراته، والبعيد في كثير من الأحيان عن الصورة الحقيقية أو الأقرب.

وهكذا نجحت دور النشر الغربية في توفير حجج عن اضطهاد المرأة المسلمة وتقديمها على أساس أنها دراسات سوسيولوجية وانتربولوجية، تعكس واقع المرأة المسلمة . كلما استدعى حدث آني صورة جديدة لها استخرج لنا الآخر من أرشيفه القديم صورة من القرون الوسطى والعهود الغابرة، ويعممها كصورة تختزل كل الصور الأخرى.

كما يلاحظ أي متابع للمشهد الثقافي الأنكلو أمريكي أن ترجمة أعمال الكاتبات العربيات تحظى باهتمام الناشرين و بإقبال الغربيين، و يصعب الجزم أن هذا الاهتمام بالترجمة نابع من اعتبارات جمالية وإبداعية محضة، إنما هو- حسب وجهة نظري- محصلة لمجمل عوامل ثقافية وتاريخية و حضارية، في مقدمتها الصورة السائدة لدى عموم القراء الغربيين على مدى عقود طويلة عن المرأة العربية المسلمة، باعتبارها مخلوقة غرائبية، متجلببة، مضطهدة، مكتومة الأنفاس، لا صوت لها ولا رأي أو كيان داخل حريم مغلق حافل بالأسرار الغرائبية، التي مازالت على ما يبدو تثير فضول عدد لا يستهان به من القراء. إزاء هذه الخلفية الجاهزة و الراسخة إلى حد بعيد، مضت صناعة الطباعة و النشر الإنكلو أمريكية تعزف على هذه الأوتار، وتتبنى ترجمات كتب نسائية عربية إسلامية تساير الذائقة السائدة لدى القراء الغربيين .وقد تصاحب الاهتمام المتزايد بقصص وكتابات لنساء مسلمات خاصة المذكرات والسيرة الذاتية بإمكانية استغلالها لتستجيب لمتطلبات التفكير الإستشراقي؛ ومثال ذلك مذكرات هدى الشعراوي المعنونة أصلا "مذكراتي" أعطيت عنوانا جديدا عند الترجمة و هو "سنوات الحريم " .يلاحظ المتابع لتلك الدراسات والترجمات عدم التركيز على الجوانب الإبداعية والجمالية للنصوص و التركيز على اعتبارها نصوص سوسيولوجية وانتربولوجية "تعكس واقع الإسلام و العالم العربي" و "ترفع الحجاب" عما دعاه أحد المراجعين "عالم النساء العربيات غير الممكن تخيله".

خلاصة :

إذا كان للغرب استيهاماته عن حريم الشرق حيث يعطي فيه النساء تلك الصور المستسلمة و السلبية تجاه مصائرها، كما تبرهن أطروحات الاستشراق النقدية كأطروحة إدوارد سعيد وطرح فاطمة المرنيسي في هذا السياق؛ فإن التصور الثقافي السائد لصور النساء بالعالم العربي يملك هو أيضا استيهاماته التي غالبا ما تستبعد صورة المرأة الإيجابية و تحصرها في الاستثناءات، مع النظرة الاستخفافية بكل ما يمثل العالم الخاص الذي اعتبر حيزا مقتصرا على النساء لا تربطه بالفضاء الخارجي إلا علاقات إلحاقية، تنكره كجزء في تركيبة المجتمع .أنا أوافق السيدة بنمسعود عندما قالت: إن مفهوم الحريم و إن غاب ماديا فهو ما يزال قائما، ويمكننا أن نلتقطه من خلال مجموعة من التظاهرات ومن خلال مجموعة من الممارسات. و تجدر الإشارة هنا، أن الغياب أو عدم الإقرار بحقوق المرأة و كرامتها، و الاعتراف بالمواطنة الكاملة لها، يجعلنا نسقط بطريقة تلقائية و - عفوية في التعامل مع المرأة انطلاقا من المفهوم الحريمي المشيء للمرأة، والذي يعمل على إبعادها و إقصائها حيث تتحول إلى كائنة هامشية ضعيفة تابعة لسلطة الرجل، التي يمكن أن تنقلب إلى "تسلط" في أي لحظة سوء تفاهم أو خلاف. وهذا ليس في صالح المرأة و لا في صالح الأسرة باعتبارها نواة المجتمع، ولا في صالح المجتمع برمته.

الهوامش: 1.يراجع مقال زكي ميلاد: "الفكر العربي المعاصر و تجديد النظر في قضايا المرأة " ، الكلمة، العدد 291 السنة السابعة خريف 2000-1421 (ص 10-28).

2.في تونس مثلا منع تعدد الزوجات منذ 1956 وفي المغرب جاءت مضامين الدستور الجديد للمملكة تكرس مبدأ المساواة و المناصفة و العدالة الاجتماعية و تكافؤ الفرص بين الجنسين . واتخذت الدولة المغربية قرارات عديدة لإنصاف المرأة و إشراكها في كل أوراش البناء و التغيير ولتأكيد على ضرورة مأسسة المساواة بين الرجل و المرأة .

3.فوزية أبو خالد :بحث النساء و الإبداع :المبدعة العربية بين مخالفة الصورة النمطية للمرأة في الذاكرة الجماعية و بين تفكيك الخطاب السائد، يراجع على الرابط الالكتروني التالي:

www.arab-hdr.org/publications/other/ahdr/papers/2005/abukhalid2.pdf

4.المرنيسي فاطمة (مؤلفة)بيضون نهلة (مترجمة): هل أنتم محصنون ضد الحريم، نشر الفنك ،الدار البيضاء 2000,ص7

5.فوزية أبو خالد، المرجع السابق .

6.إدوارد سعيد، الإستشراق، ترجمة كمال أبوديب مؤسسة الأبحاث العربية، ط 1\1981،

7. نفس المرجع ص 285

8.نفس المرجع ص296 .

9. محمد الدعمي، الإستشراق : الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي (مركز دراسات الوحدة العربية 2006).

Melman Billie , *Women's Orients , English Women And The Middle East. 10 1718-1918, Sexuality , Religion ,And Work University Of Michigan Press ,1982.p :63.*

Lewis Reina , *Gendering Orientalism , race , Femininity And Representation 11 .Rutledge London And New York 1996.*

12 .محمد الدعمي المرجع السابق، ص 99.

<u>*المراجع:*</u>

المرنيسي فاطمة (مؤلفة) بيضون نهلة (مترجمة)، هل أنتم محصنون ضد الحريم، نشر الفنك، الدار البيضاء2000 .

المرنيسي فاطمة :(مؤلفة)أزرويل فاطمة الزهراء (مترجمة)، نساء على أجنحة الحلم، نشر الفنك، الدار البيضاء 1998.

الميلاد زكي : " الفكر العربي المعاصر و تجديد النظر في قضايا المرأة، العدد 59 السنة السابعة خريف 2000م 1421ه (ص 10-28).

- Al –Dami Mohammed, *''The Harem In The Colonizer's Eyes'' Middle East Quarterly, Vol 3, No.11 (1996), pp 32-40 Newsweek, Dec 15,1997-6*
- Dakhlia Jocelyne, *cc Entrées dérobées: L'Historiographie Du Harem*
- Del Plato Joan, *Multiple Wives, Multiple Pleasures ;Representing The Harem,1800 -1875*
- Gros Richard .A, *The Sultan's court: European fantasies of The East.* London and New York Verso, 1998.
- Kabbani.R, *Imperial Fictions :Europe's Myths of Orient .London Malmillan 2008 .*
- Lewis Reina, *Gendering Orientalism, race, Femininity And Representation Rutledge London And New York 1996.*
- Melman Billie , *Women's Orients , English Women And The Middle East 1718-1918, Sexuality , Religion ,And Work University Of Michigan Press ,1982.*

- Said, Edward : *W Orientalism ,Harmonds Worth, Penguin ,1978.*

Covering Islam :How The Media And The Experts Determine How We See The Rest Of The World ,London ,Rontledge,1981.

- Yeazell Bernard Ruth, *Harems of The Mind : Passages Of Western Art And Literature New Harem And London Yale University Press 2000.*
- Yegenoglu .Meyda , *Colonial fantasies: Towards A feminist Reading Of*

Orientalisms Cambridge University Press 1998.